من الضـيق ، ومن الهَمّ ، ومـن الحـزن ، وتقـال حيـن ندخل الجنة ، وننعم بنعيمها ونعلم صدْق الله تعالى فيما أخبرنا به من نعيمها .

هذا كله حَـمْد على نعـمه ، وهناك الحمـد الأعلى : ألم تقرأ الـحديث القـدسى : « إن الله يتـجلى على خَـلْقـه المـؤمنين فى الجنة فـيـقـول : يا عبادى ، ألا أزيدكم ؟ فيقولون : وكـيف تزيدنا وقد أعطيْتنا مَا لا عَيْنٌ رأتْ ، ولا أذن سـمـعتْ ، ولا خطر على قلب بشـر ؟ قـال : أُحلُّ عليكم رضواني ، فلا أسخط عليكم بعدها أبداً »[1] فماذا بعد هذا الرضوان ؟

يقول تعالى : ﴿ وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٧٥) ﴾ [الزمر]

هذا هو الحمد الأعلى ، فقد كنت فى الحمد مع النعمة ، وأنت الآن فى الحمد مع المنعم سبحانه .

ثم يقول سبحانه : ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٥) ﴾ [لقمان] وهم أهل الغفلة عن الله ، أو ﴿ لا يَعْلَمُونَ (٢٥) ﴾ [لقمان] أى : العلم الحقـيقى ، النافع ، وإنْ كـانوا يعلمون العلم من كـتاب غـير منير ، أو : يعـلمون العلم الذى يُحقِّق لهم شهواتهم .

ثم ينتقل السياق إلى آيات كونية فيقول سبحانه :

﴿ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ (٢٦) ﴾

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٥٤٩) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٨٢٩) من حديث أبى سعيد الخدرى ، ولفظه : إن الله يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة . فيقولون : لبيك ربنا وسعديك . فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تُعط أحداً من خلقك . فيقول : أنا أعطيكم أفضل من ذلك . قالوا : يا رب وأى شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبداً .

بعد أن سجَّل الله تعالى عليهم اعترافهم وشهادتهم بأنه سبحانه خالق السموات والأرض ، أراد سبحانه أنْ يُبيِّن لنا أن السموات والأرض ظرف لما فيهما ، وفيهما أشياء كثيرة ، منها ما نعرفه ، ومنها ما لا نعرفه ، والمظروف دائماً أغلى من المظروف فيه ، فما فى (المحفظة) من نقود عادة أغلى من المحفظة ذاتها ، وما فى الخزانة من جواهر وأموال أو أوراق هامة أنفَسُ من الخزانة وأهمّ .

لذلك قلنا : إياك أنْ تجعل كتاب الله حافظة لشىء هام عندك ؛ لأنه أغلى من أىِّ شىء فينبغى أنْ نحفظه ، لا أنْ نحفظ فيه .

وكأن فى الآية إشارة إلى أنهم كما أقرُّوا لله تعالى بخَلْق السموات والأرض ينبغى أنْ يُقروا كذلك بأن له سبحانه ما فيهما ، وهذه مسألة عقلية يهتدى إليها كل ذى فكر سليم ، فما دامت السموات والأرض لله ، فله ما فيهما ، وهَبْ أن لك قطعة أرض تمتلكها ، ثم عثرتَ فيها على شىء ثمين ، إنه فى هذه الحالة يكون ملكك شرعاً وعقلاً .

وينبغى للعاقل أنْ يتأمل هذه المسألة : لله تعالى ما فى السموات وما فى الأرض ، ومن هذه الأشياء الإنسان الذى كرَّمه الله ، وجعله سيداً لجميع المخلوقات وأعلى منها ، بدليل أنها مُسخَّرة لخدمته : الحيوان والنبات والجماد ، فهل يصح أن يكون الخادم أعظم من سيده أو أطول عمراً منه ؟

فعلى العاقل أن يتأمل هذه المسألة ، وأن يستعرض أجناس الكون ويتساءل : أيكون الجماد الذى يخدمنى أطول عمراً منى ؟

إذن : لابد أن لى حياة أخرى تكون أطول من حياة الشمس والقمر وسائر الجمادات التى تخدمنى ، وهذا لا يكون إلا فى الآخرة

حيث تنكدر الشمس ، وتتلاشى كل هذه المخلوقات ويبقى الإنسان .

إذن : أنت محتاج لما في الأرض ولما في السماء من مخلوقات الله ، وبه وحده سبحانه قوامها مع أنه سبحانه غنيٌّ عنها لا يستفيد منها بشيء ، فالله سبحانه خلق ما هو غنيٌّ عنه ؛ لذلك يقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ ﴾ [لقمان] لأنه سبحانه بصفات الكمال خلق ، فلم يزدْه الخلق صفة كمال لم تكُنْ له ، فهو مُحْيٍ قبل أنْ يوجد مَنْ يُحييه ، مُعِزٌّ قبل أنْ يوجد من يعزه .

وقلنا : إنك لا تقول فلان شاعر لأنك رأيته يقول قصيدة ؛ بل لأنه شاعر قبل أن يقولها ، ولولا أنه شاعر ما قال .

فمعنى ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [لقمان] أى : الغنى المطلق ؛ لأن له سبحانه كل هذا المُلْك فى السموات وفى الأرض ، بل جاء فى الحديث القدسي أن السماء والأرض بالنسبة لملْك الله تعالى كحلقة ألقاها مُلْقٍ فى فلاة[1] ، فلا تظن أن مُلْك الله هو مجرد هذه المخلوقات التى نعلمها ، رغم ما توصَّل إليه العلم من الهندسة وحساب المسافات الضوئية .

فالله سبحانه هو الغنيُّ الغِنَى المطلق ؛ لأنه خلق هذا الخَلْق وهو غنى عنه ، ثم أعطاه لعبيده وجعله فى خدمتهم ، فكان من الواجب لهذا الخالق أن يكون محموداً ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ ﴾ [لقمان] وحميد فعيل بمعنى محمود ، وهو أيضاً حامد كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ ﴾ [البقرة] لكن ، شاكر لمن ؟

(١) عن أبى ذر الغفارى أنه سأل رسول الله ﷺ عن الكرسى ، فقال ﷺ : « والذى نفسى بيده ما السماوات السبع والأرضون السبع عند الكرسى إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، وإن فضل العرش على الكرسى كفضل الفلاة على تلك الحلقة » أخرجه ابن جرير الطبرى فى تاريخه (١/ ١٥٠) وابن حبان (ص ٥٢ موارد الظمآن) ، وأبو نعيم فى الحلية (١/ ١٦٦) .

قالوا : إذا كان العبد يشكر ربه ، وقد علَّمه الله : أن الذى يحيِّيك بتحية ينبغى عليك أنْ تُحيِّيَه بأحسن منها ، فربُّك يعاملك هذه المعاملة ، فإنْ شكرْتَهُ يزدك ، فهذه الزيادة شُكْر لك على شُكْرك لربك . أى : مكافأة لك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾

قوله تعالى ﴿ مِن شَجَرَةٍ .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [لقمان] منْ : هنا تفيد العموم أى : من بداية ما يُقال له شجرة ، وفرق بين أنْ تقول : ما عندى مال ، وما عندى من مال ، فالأولى لا تمنع أن يكون عندك القليل من المال الذى لا يُعتدُّ به ، أمَّا (من مال) فقد نفيتَ جنس المال قليله وكثيره . وتقول : ما فى الدار أحد . وربما يكون فيها طفل مثلاً أو امرأة ، أمَّا لو قلْتَ : ما فى الدار من أحد ، فهذا يعنى خُلوها من كل ما يُقال له أحد .

والشجرة : هى النبات الذى له ساق ، وقد تشابكتْ أغصانها ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ .. ﴿٦٥﴾ ﴾ [النساء]

أما النبات الذى ليس له ساق فهو العُشْب أو النجم الذى ينتشر على سطح الأرض ، خاصة بعد سقوط الأمطار ، وهذا لا تُؤخذ منه الأقلام ، إنما من الشجرة ذات الغصون والفروع .

وقد ذكر القرآن الكريم هذين النوعين في كلام معجز ، فقال سبحانه : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) ﴾ [الرحمن] فالشمس والقمر ﴿ بِحُسْبَانٍ (٥) ﴾ [الرحمن] أى : حساب دقيق محكم ؛ لأن بهما حساب الزمن ، ﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) ﴾ [الرحمن] أى : فى خضوع لله تعالى .

وكلمة النجم هنا يصح أنْ تُضاف إلى الشمس والقمر ، ويصح أنْ تضاف للشجر ، فهو لفظ يستخدم فى معنى ، ويؤدى معنى آخر بضميمة ضميره .

وقد تنبه الشاعر إلى هذه المسألة ، فقال :

أُراعِى النجْمَ فى سَيْرِى إليكُمُ ويرعَاهُ مِنَ البَيْدا جَوادِى

فهو ينظر إلى نجم السماء ليهتدى به فى سيره ، ويرعى جواده نَجْم الأرض ، ومن ذلك أيضاً كلمة العين ، فتأتى بمعنى الذهب والفضة ، وبمعنى الجاسوس ، وبمعنى عين الماء ، وبمعنى العين المبصرة .

ومعنى : ﴿ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ .. (٢٧) ﴾ [لقمان] أى : يُعينه ويساعده إنْ نفد ماؤه . ولك هنا أن تسأل : لماذا جعل الإمداد للماء ، ولم يجعله للشجر ؟ قالوا : لأن القلم الواحد يكتب بحبر كثير لا حَصْرَ له ، فالحبر مظنة الانتهاء ، كما أن الشجر ينمو ويتجدد ، أما ماء البحر فثابت لا يزيد .

واقرأ أيضاً فى هذه المسألة : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩) ﴾ [الكهف]

والعدد سبعة هنا ﴿ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ .. (٢٧) ﴾ [لقمان] لا يُراد به العدد ،

إنما يراد به الكثرة كما في قوله تعالى : ﴿سَبْعَ سَمَاوَاتٍ.. (١٢)﴾ [الطلاق] فهذه في مجرتنا الشمسية ، فما بالك بالسموات في المجرات الأخرى ، وقد علمنا أن السماء هي كل ما علاك فأظلك .

إذن : يرد العدد سبعة على سبيل الكثرة ، والعرب كانوا يعتبرون هذا العدد نهاية للعدد ؛ لأن العدد معناه الأرقام التى تبين المعدود ، فهناك فرق بين العدد والمعدود ، ولما تبينّا هذا الفرق استطعنا أنْ نرد على المستشرقين في مسألة تعدد الزوجات ، فالعدد يعنى ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ . أما المعدود ، فما يميز هذه الأعداد .

والرسول ﷺ حينما أراد أنْ يُنهى التعدد المطلق للزوجات لما أنزل الله عليه أنْ يأمر الناس أن مَنْ معه أكثر من أربع زوجات أنْ يُمسك أربعاً منهن ويفارق الباقيات[1] .

وكان عند رسول الله في هذا الوقت تسع زوجات لم يشملهُنَّ هذا الحكم ، فقالوا : لماذا استثنى الله محمداً من هذا الحكم ؟ وكيف يكون عنده تسع ، وعند أمته أربع ؟ ولم يفطنوا إلى مسألة العدد والمعدود : هل استثنى الله تعالى رسوله في العدد ، أم في المعدود ؟

نقول : استثناه في المعدود ؛ لأنه تعالى خاطب نبيه في آية أخرى : ﴿لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ .. (٥٢)﴾ [الأحزاب] ففرض على رسول الله أنْ يقتصر على هؤلاء ، لا يزيد عليهن ، ولا يتزوج بعدهن حتى لو مُتْنَ جميعاً .

---

(١) أخرج الإمام مالك في الموطأ (ص ٥٨٦) كتاب الطلاق بلاغاً أن رسول الله ﷺ قال لرجل من ثقيف ، أسلم وعنده عشر نسوة حين أسلم الثقفي : « أمسك منهن أربعاً ، وفارق سائرهن » ووصله الترمذي في سننه (١١٢٨) من حديث ابن عمر أن النبي ﷺ أمره أن يتخير أربعاً منهن ، وسمَّى الرجل « غيلان بن سلمة الثقفي » .

إذن : لم يستثنه فى العدد ، وإلا لكان من حقِّه إذا ماتت واحدة من زوجاته أنْ يتزوج بأخرى ، وإنْ مُتْن جميعاً يأتى بغيرهن .

ولك أن تقول : ولماذا جعل الله الاستثناء فى المعدود لا فى العدد ؟ قالوا : لأن زوجات غير النبى ﷺ إذا طلَّقها زوجها لها أن تتزوج بغيره ، لكن زوجات النبى ﷺ أمهات للمؤمنين ومحرمات عليهم ، فإنْ طلَّق رسول الله إحدى زوجاته بقيت بلا زواج .

لذلك أُمر رسول الله أنْ يمسك زوجاته التسع ، شريطة ألاَّ يزيد عليهن ، فى حين يُباح لغيره أن يتزوج بأكثر من تسع ، بشرط ألاَّ يبقى معه أكثر من أربع ، وعليه ، فهذا الحكم ضيَّق على رسول الله فى هذه المسألة فى حين وسَّع على أمته .

ونعلم أنَّ معظم زوجات النبى كُنَّ كبيرات فى السِّن ، وبعضهن كُنَّ لا إرْبة لهن فى مسألة الرجل ، لكنهن يحرصن على شرف الانتساب لرسول الله ، وعلى شرف كَوْنهن أمهات المؤمنين ؛ لذلك كانت الواحدة منهن تتنازل عن قَسْمها فى البيتوتة لضرتها مكتفية بهذا الشرف[1] .

إذن : التفريق بين العدد والمعدود خلَّصنا من إفك المستشرقين ، ومن تحاملهم على رسول الله واتهامهم له بتعدد الزوجات ، وأنه ﷺ وسَّع على نفسه وضيَّق على أمته .

ومسألة العدد والمعدود هذه مسألة واسعة حيَّرت حتى الدارسين للنحو ، فلا إشكالَ فى العدد واحد والعدد اثنان ؛ لأننا نقول فى المفرد المذكر : واحد والمؤنث : واحدة . وللمثنى المذكر : اثنان ،

---

(١) فعلت هذا سودة بنت زمعة زوجة رسول الله . وقد وهبت ليلتها لعائشة رضى الله عنها فى مقابل ألا يطلقها رسول الله ﷺ . قائلة للنبى ﷺ : « أبقنى يا رسول الله وأهب ليلتى لعائشة . وإنى لا أريد ما تريد النساء » . الإصابة لابن حجر (١١٧/٨) .

وللمؤنث : اثنتان . فالعدد يوافق المعدود تذكيراً وتأنيثاً ، لكن الخلاف يبدأ من العدد ثلاثة ، حيث يذكَّر العدد مع المعدود المؤنث ، ويُؤنَّث مع المعدود المذكَّر ، فمن أين جاء هذا الاختلاف ؟

قالوا : لاحظ أن التذكير هو الأصل ؛ ولذلك احتاج التأنيث إلى علامة ، أما المذكَّر وهو الأصل فلا يحتاج إلى علامة ، تقول : قلم . وتقول : دواة . فاحتاجت إلى علامة للتأنيث فهي الفرع والمذكر هو الأصل .

وتعالَ إلى الأعداد من ثلاثة إلى عشرة ، تقول : ثلاثة ، أربعة ، خمسة ، ستة ... إلخ فالعدد نفسه مبنيٌّ على التاء ، وليست هي تاء التأنيث ؛ لأنها أعداد مجردة بلا معدود ، فإذا أردنا تأنيث هذا العدد وبه تاء لا نضيف إليه تاءً أخرى ، إنما نحذف التاء فيكون الحذف هو علامة التأنيث ويبقى العدد مع المذكر على الأصل بالتاء .

فما حكاية العدد سبعة بالذات ؟ قالوا : إن العدد واحد هو الأصل في الأعداد ؛ لأن العدَّ ينشأ من ضم واحد إلى آخر ، فواحد هو الخامة التي تتكون منها الأعداد فتضم واحداً إلى واحد وتقول : اثنان وتضم إلى الاثنين واحداً ، فيصير العدد ثلاثة .. وهكذا .

ومعلوم أن أقلَّ الجمع ثلاثة ، والعدد إما شفع وإما وتر ، الشفع هو الذي يقبل القسمة على الاثنين ، والوتر لا يقبل القسمة على الاثنين ، والله تعالى يقول : ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣﴾ [الفجر] فبدأ بالشفع وأوله الاثنان ثم الثلاثة ، وهي أول الوتر ، أما الواحد فقد تركناه لأنه كما قلنا الخامة التي يتكون منها جميع الأعداد .

وما دام الله تعالى قال : ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣﴾ [الفجر] فالاثنان أول الشفع ، والثلاثة أول الوتر ، وأربعة ثاني الشفع ، وخمسة ثاني

الوتر ، وستة ثالث الشفع ، وسبعة ثالث الوتر .

وقلنا : إن الجمع أقلُّه ثلاثة ، فاعتبرت العرب العدد سبعة أقصى الجمع وتراً وزوجاً ، وانتهت عند هذا العدد ، فإذا أرادوا العدَّ أكثر من ذلك أتوْا بواو يسمونها واو الثمانية ، وقد سار القرآن الكريم في أحكام العدد هذه على ما سارت عليه العرب .

واقرأ إنْ شئت هذه الآيات : ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا .. (٧١)﴾ [الزمر]

أما في الجنة فيقول سبحانه : ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا .. (٧٣)﴾ [الزمر]

فما الفرق بين الآيتين ؟ ولماذا جاءت الواو في الثانية ، ولم تُذْكر في الأولى ؟

قالوا : لأن ﴿فُتِحَتْ .. (٧١)﴾ [الزمر] في الأولى جواب شرط ، وهذا الجواب كانوا يُكذِّبونه وينكرونه . والشرط تأسيس ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا .. (٧١)﴾ [الزمر] ماذا حدث ؟ ﴿فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا .. (٧١)﴾ [الزمر] إنما هل كان المؤمنون المتقون الذين يذهبون إلى الجنة يُكذِّبون بهذا اليوم ؟

إذن فـ : ﴿فُتِحَتْ .. (٧١)﴾ [الزمر] هنا لا تكون جواباً ؛ لأنهم يعلمون يقيناً أنها ستفتح ، أما الجواب فسيأتي في : ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٧٤)﴾ [الزمر]

ولما كانت أبواب النار سبعة لم يذكر الواو ، أما في الجنة فذكر

الواو ، لأن أبوابها ثمانية .

كذلك اقرأ قول الله تعالى ولاحظ متى تستخدم الواو : ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ[1] تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ[2] ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا ۝٥ ﴾ [التحريم]

تجد الواو قبل الثمانية ، ذلك لأن العرب تعتبر السبعة منتهى العدد بما فيه من زوج وفرد .

وقوله تعالى : ﴿ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ .. ۝٢٧ ﴾ [لقمان] أي : يُجعل مداداً لكلمات الله ﴿ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ .. ۝٢٧ ﴾ [لقمان] كلمات الله هي السبب في إيجاد المقدورات العجيبة ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢ ﴾ [يس] فكل مراد من شيء سببه كن .

وهنا عجيبة ينبغي أنْ نتأملها : فالله تعالى يقول للشيء وهو لم يُخْلَق بعد (كن) ، كأن كل الأشياء موجودة في الأزل ومكتوبة ، تنتظر هذا الأمر (كن) ، فتبرز إلى الوجود ، كما يقول أهل المعرفة : أمور يبديها ولا يبتديها .

إذن : ﴿ كَلِمَاتُ اللَّهِ .. ۝٢٧ ﴾ [لقمان] هي كن وكل مرادات الله في كونه ، ما علمنا منه وما سنعلم ، وما لم نعلم إلا حين تقوم الساعة .

ألم يَقُلْ في العجيب من أمر عيسى عليه السلام : ﴿ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ .. ۝١٧١ ﴾ [النساء] والمعنى أنه لم يُخلق بالطريق

(١) القانت : المطيع الذاكر لله تعالى العابد . والقانت : القائم بجميع أمر الله تعالى . [لسان العرب ـ مادة : قنت] .

(٢) السائحات : الصائمات . وسياحة هذه الأمة الصيام ولزوم المساجد . [لسان العرب ـ مادة : سيح] .

الطبيعي فى خَلْق البشـر من أب وأم ، إنما خُلق بهذه الكلمة (كن) . لماذا ؟

لأن الله تعالى يريد أنْ يثبت لنفسـه طلاقة القدرة فى الإيجادات ، وأنه سبحانه يخلق كما يشاء ، فمرة يخلق بلا أب وبلا أم ، كما خلق آدم عليـه السلام ، ومـرة يخلق بأم دون أب كـما خلق عـيسى عليـه السلام ، ومرة يخلق بأب وأم ، ويخلق بأب دون أم كما خلق حواء . إذن : القسمة العقلية موجودة بكل وجوهها .

إذن : مع طلاقة القـدرة لا اعتـبارَ للأسبـاب ، فأنت إنْ أردتَ أنْ تكوِّن مـثلاً قطرة الماء ، فـعليك أنْ تأتى بالأكسوجين والأيـدروجين بطريقـة معيـنة ليخـرج لك الماء وإلا فـلا ، أما الخالـق - عز وجل - فيـخلق بالأشياء وبدون شيء ، لأن الأشيـاء بالنسبة لله تعـالى ليست فاعلة بذاتها ، وإنما هى فاعلة بمراد الله فيها .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٧) ﴾ [لقمان] والعزيز هو الذى يَغلب ولا يُغلب ويَقْـهر ولا يُقهـر ، ولا يستدرك أحـد على فعله حتى لو كان مخالفاً لعقله هو ، وتأمل معنى العزة ، وكيف وردت فى هذا الموقف من قوله تعالى لسيدنا عيسى عليه السلام :

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) ﴾ [المائدة] إلى أن يقول : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) ﴾ [المائدة]

والمنطق العـقلى يقتـضى أن نقول فى عـرف البشر : فـإنك أنت الغفور الرحيم ، فـالمقام مقام مغفرة ، لكن عـيسى عليه السلام يأتى

بها ، لا من ناحية الغفران والرحمة ، وإنما من ناحية طلاقة القدرة والعزة التى لا يستدرك عليها أحد .

﴿ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) ﴾ [المائدة] والمعنى : لو قال الناس لماذا غفرتَ لهم مع أنهم قالوا كذا وكذا ؟ فالإجابة أننى أنا العزيز الذى أغلب ولا أُغلب ، ولا يستدرك أحد على حكمى ، إذن : ذيَّل الآية بالعزة لعزة الله تعالى فى خَلْقه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٢٨) ﴾

الحق سبحانه وتعالى يؤكد دائماً على قضية البعث والقيامة ، ويريد سبحانه أنْ ينصب للناس فى حركة حياتهم موازين الجزاء ؛ لأن كل عمل لا توجد فيه موازين للجزاء يعتبر عملاً باطلاً ، ولا يمكن أنْ يستغنى عن الجزاء ثواباً وعقاباً إلا مَنْ كان معصوماً أو مُسخَّراً ، فالمعصوم قائم دائماً على فِعْل الخير ، والمسخَّر لا خيارَ له فى أنْ يفعل أو لا يفعل .

إذن : إذا لم يتوفر مبدأ الجزاء ثواباً وعقاباً فى غير هذين لا بُدَّ أنْ يوجد فساد ، إذا لم يُثب المختار على الفعل ، ويعاقب على الترك اضطربت حركة الحياة ، حتى فى المجتمعات التى لا تؤمن بإله وضعت لنفسها هذا القانون ، قانون الثواب والعقاب .

والحق - سبحانه وتعالى - يعطينا مثالاً لهذا المبدأ فى قوله تعالى من قصة ذى القرنين : ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ